

إعداد : محمد التميمي [mohammadaltamimi@hotmail.com](mailto:mohammadaltamimi@hotmail.com)

## السوفسطائية الساذجة أو اللادينية العربية



بقلم الفيلسوف : أبو يعرب المرزوقي

## تمهيد

ليس هذا العمل ردا على اللادينيين العرب . و لا هو حتى رد لموقفهم ؛ فكلامهم يغنيك بتهافته عن هذا الهم . و موقفهم لسذاجته يغريك بممازحتهم . لذلك فهو نزهة فكرية في أمر تمتعت بجدية السذاجة التي تغلب على أصحابه لأنهم لو قرئوا القرآن حقا وفهموا إعجابه لاهلهم خلطهم بين تبر التدين وترايه . ذلك ما أغرائني بالسؤال عن ضمائر هذه التزعة ذات الوهن المنطقي الذي يراه حتى العميان و الضحالة الفكرية التي ليس دونها هذيان . والغريب أن منظومتها البسيطة التي لو أدركها اللادينيون العرب لاكتشفوا أنهم أصلا نيون حتى النخاع استبدلوا عقائد العجائز التي ربوا عليها بسقط المتاع فضلا عن كون كل حججهم و استدلالاتهم لا تعدوا أن تكون من احتجاج الأطفال الذين لم يجدوا ما كانوا يحلمون به فأصبحوا فيلة تهدم الفخار الراقي لجهلهم بالراقي .

و يمكن حصر هذه الضمائر في خمسة مزاعم غير واعية أصحابها بمقدماتها و شروطها الدالة على عكس ما يزعمون أنفسهم به قائلين . و سنكتفي بتحليل أولها خلال علاج آخرها لكونهما متحدتين بالجواهر إذ الأول هو المسمى و الثاني هو الاسم حتى نترك البقية لمن هم منهم أقل غفلة عليهم يدركون خواء الحفلة في هذا الموقع المدقع اعتمادا على ما قدمنا من مدفع :

١ - زعم نفي وجود الله : غفلة اللادينين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن الإلحاد تزيهية ( التذليل على العدل الإلهي ) سلبية ذات مستويين : تزيه لا واع هو الشكوى من الشر في الوجود و امتناع نسبة ذلك للإله من دون اعتباره عاجزا و تزيه واع هو تأليه مجرى الوجود تحت مسمى الضرورة والصدفة .

و التزيه الأول إفراط آل إلى نفي وجود الله لئلا ينسب إليه ما في العالم من شر . و التزيه الثاني تفريط آل إلى نسبة ما في العالم من شرور إلى نقيض صفتين من صفات التمام الإلهي أي الضرورة ( ضد الحرية و الاختيار ) والصدفة ( ضد القصد والغاية ) .

٢ - زعم نفي النبوة : غفلة اللادينين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفيها ادعاء لما هو أكثر منها استحالة .

فنفيها يعني أمرين كلاهما مستحيل : إما أن يزعم النافي أن العقل غير محدود أو يزعم أن العقل لا يدرك حدوده فيكون حبيسها لا يتخطاها . و كلا الفرضيتين يكذبهما الواقع : فكلنا يدرك حدود عقله وكلنا يعتقد أن ذلك ليس وهما بل حقيقة أي إن العقل محدود حقا .

٣ - زعم نفي التفسير الديني : غفلة اللادينين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن هذا النفي ممتنع من غير أسطرة التفسير العلمي .

فالعلم ينقلب في هذه الحالة إلى أسطورة. بمعنى :

أ- النظريات التي تساعد على التعامل مع الظواهر المادية مختلفات خيالية لو اعتبرت حقائق لامتنتع تاريخيتها ومن ثم لما توالى تكذيباتها اللامتناهية .

ب- لكن العلم يكون أسطورة من القوة الثانية عندما يدعي الوجود منحصر في موضوعاته أو في ما يدركه منها فينفي من الوجود ما يتسع إليه أفق الدين .

عندئذ يكون العلم دونه الدين استجابة لحاجات الإنسان شمولاً ونفاذاً إلى الحقائق فيصبح أقل من الأسطورة بالمعنى الأول . فإذا اعتبرنا نظريات التفسير العلمية مخترعات بشرية كان الدين أقل من العلم أسطورية لأنه لا يشوه الوجود بل يرى فيه إبعاداً لا يستطيع العلم نكرانها من دون التحول إلى أسطورة أدنى مما يزعمه في وصفه الدين .

٤- زعم نفي الشرائع المتعالية : غفلة اللادينيين جعلتهم لا ينتبهون إلى أن نفي الشرائع المتعالية و حصر التشريع في الأوضاع البشرية غير ممكن من دون الخلط بين أعيان الموضوعات التشريعية وضرورة الوضع التي ليس يمكن للعمران أن يكون من دونها . فإذا كان التشريع المتعالي متعلقاً بشروط التشريع وصفاته لا بمضموناته كان كل كلام اللادينيين دالاً على عدم فهم المتعالي ما هو ؟  
و لنأخذ مثلاً واحداً قد يساعد على إفهام أكثر العقول بلادة . فلا

شك أن الموازين و المقاييس والعملات مختلفة من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر في نفس الأمة و لا شك أنها كلها موضوعه . لكن التعاوض الذي من أجله جعلت هذه الوسائل و شرط كونه تعاوضا حقيقيا أو غير مغشوش هل هو متعال أم تواضعي ؟ و هل يمكن للتواضع من دونه أن يحصل ؟ كيف نتواضع على المقاييس و الموازين و العملات إذا لم نكن قد انطلقنا من أن التعاوض العادل أو غير المغشوش هو أساس العمران ؟ و ليقراً اللادينون " **المطففين** " كيلا و اكتيالا لعلهم يفهمون !

٥- زعم نفي الدين أو اللادينية : غفلة اللادينين العرب جعلتهم لا ينتبهون إلى أن اللادين مستحيل الوجود إلا من حيث هو أحد الأديان حتى و لو كان جامعا لها بالسلب .

فهي موقف وجودي و معرفي و قيمي له ثوابت عقدية حتى عند حصرها في السلوب الأربعة السابقة : الإلحاد و نفي النبوة و نفي التفسير الديني و نفي التشريع المتعالي . لذلك فهو دين : إذ ليس من ضرورة الدين أن يكون متزلا و لا من ضرورته أن يكون ذا كتاب و مؤسسات بل المهم أن توجد جماعة تدين بمنظومة معتقدات . و حتى لا يترعج أصحاب هذا الموقف فإني أنبههم أن قراءة القرآن الكريم بروية تبين أن كل هذه الآراء التي يزعمونها أمرا مهما يؤسسون عليه موقفهم لا تخلو تجربة نبي واحد من علاجها بل إني أزعم أن الرسالة المحمدية تنطلق منها للوصول إلى الدين الحق الذي ينبغي أن يتصف بصفات الإسلام أعني القول بأن الدين فطرة و بأنه شامل للإنسانية كلها و بأنه يؤمن بحرية الدين و بحق الجميع في عدم الإكراه في الدين بما في ذلك الشرك كما في آية الإرجاء و التفويض ( **الحج ١٧** ) فهي الشبهات الوجودية الأساسية التي بتدبرها يعاني المرء جوهر التجربة الدنية فتجعل الإيمان خيارا حرا لا إكراه فيه و لا عنت .

## مزید تحلیل فی المسألتین الأولى والأخيرة

نزل القرآن الکریم موقف اللادینیین فی الجنس السادس من الأديان عندما حصر الأديان كلها وحدد منها موقف الأمة الشاهدة المبدئي ( الذي قد تغيره الضرورات فی التشريع الفعلي كما يحدد القانون أحيانا بعض تطبيق المبادئ الدستورية ) أعني موقف الإرجاء فی ما يتعلق بالمعتقد الذي لا إكراه فيه بعد تبين الرشد من الغي . فاللادينیون لسذاجتهم لم يفهموا أنهم مشرکون لقولهم بفواعل خمسة يفسرون بها خروج النظام من عدم النظام فی الوجود فيكونون ذوي دين و ليسوا لا دينیین : " إن الذين آمنوا و الذين هادوا و الصابئين و النصارى و المجوس و الذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة " ( الحج ١٧ ) . فهم يقولون بالفواعل الخمسة التالية : ١ - بالضرورة ٢ - و بالصدفة ٣ - و بفعل الضرورة فی الصدفة ٤ - و بفعل الصدفة فی الضرورة ٥ - بخروج النظام اللاحق من اللانظام السابق من وحدة الفواعل الأربعة وحدتها التي هي غيرها و من ثم فهي فاعل خامس من طبقة أرقى ( و إذا اعتبرنا التفاعلين راجعين إلى المبدئين الأولین كان هذا الموقف جنيس التثليث المسيحي الذي يبني عليه هيكل كل فلسفته فی التاريخ فضلا عن منطقته الذي هو ميتافيزيقاه ) . و لما كنا نشك فی قدرة الغافلين من اللادينیین على فهم هذا النوع من المجردات سنضرب مثال نظرية التطور التي هي الأساس الذي تبني عليه الدهرية الحديثة كما فهمها العلامة جمال الدين الأفغاني فی رده على الطبعانية :

- ١ - فالضرورة هنا هي قوانين الوراثة الرياضية ذات التحقق الفعلي .
- ٢ - و الصدفة هي الطفرة التكيفية ذات الأثر الفعلي .
- ٣ - و أثر الضرورة في الصدفة هو ثبات الخاصية المطفورة في الطافر و فناء غير الطافرين .
- ٤ - و أثر الصدفة في الضرورة هو تكيف الطافر و عدم تكيف غير الطافر .

و جملة المؤثرات هي التطور العضوي للأنواع التي تصبح سلسلة واحدة تشملها  
النقلة من عدم النظام إلى النظام أو من قدر أصغر من النظام إلى قدر أكبر يحقق  
التكيف الأفضل ليكون البقاء للأصلح في صراع الصدف .

لكن ذلك يصبح غائية عامة للظواهر العضوية حتى لو أنكر أصحابها القول  
بالغائية الخاصة بالأنواع التي دخلت في السيلان الأبدي للتطور . و هم ينكرون  
ذلك لغفلتهم أو لسذاجتهم . إذ ما معنى الوراثة إن لم تكن قانونا ينقل الخاصيات  
بحسب قوانين ثابتة و يحافظ عليها بحسب تلك القوانين ؟ وكيف تكون الطفرة  
تكيفية إذا لم يكن بين الطفرة والبيئة ( التي تخضع هي بدورها لضرورتين طبيعية  
وعضوية بمقتضى مقوميتها المادي و العضوي ) تلاق يقتضي - حتى و إن لم يكن  
مقصودا قبلها - حصولا بعديا للتوافق بين المحددات ؟ و أي معنى لثبات الخاصية  
المطفورة المحققة للتكيف بالقضاء على الخاصيات التي لا تحقق التكيف إذا لم يكن  
ذلك من التوافق بين توافقين إيجابي هو السابق و سلبي هو عكسه لغير الطافرين ؟  
إلخ .

و في الجملة فإن نفي اللادينيين للإعجاز الذي احتاج إليه الدين مرة واحدة لتفسير النظام في الكون بعقل ناظم وخالق ينتهي إلى تعميم الإعجاز في كل صغيرة وكبيرة فيصبح كل شيء يحصل في الوجود الطبيعي و التاريخي يحصل بمعجزة يسمونها الصدفة : أليس ذلك هو عين أسطورة العالم كله أسطورة مطلقة و عودة إلى العقلية السحرية التي يرمز إليها الدين بالوثنية يعني بتعدد الخالقين و معجزات الخلق بهذه الفواعل الخمسة ؟ ! و بذلك نعود إلى مسألة الإلحاد . فلو كان الإلحاد ممكنا عقلا إمكانا صادقا خلقيا مثله مثل اللادرية ( أي في حديث النفس مع نفسها و ليس في ما تقول و خاصة خلال كل التجارب الوجودية التي تمر بها و التي يصف القرآن الكريم بعضها عندما يلجأ المرء إلى خالقة ) لكنت أول القائلين بهما . لكنهما مستحيلان صادقين . فالجمع بين التزيهين الواعي و اللاواعي اللذين أشرت إليهما في المسألة الأولى يعود إلى الدليل الوجودي مسلوبا رغم غفلة من يرى العالم مقلوبا . و عظمة القرآن أنه قد نبه إلى ذلك في أغلب آيات الاستدلال التأملية على الوجود الإلهي .

فالدليل الوجودي الموجب يقول : تصور الله أو ماهيته يقتضي وجوده أو إنيته . وبين أن هذا الدليل يضم أن كل الموجودات الأخرى تصورها لا يقتضي وجودها . و عليه بنت الفلسفة و الكلام الإسلاميين كل الفكر الإسلامي انطلاقا من الترجيح الجهوي . فيكون الدليل الوجودي تناظر خفي بين وجودين مطلق ( الخالق ) و نسبي ( المخلوق ) . و من ثم فهو كما يقول هيجل محصلة الأدلة الثلاثة الأخرى على وجود الله : الدليل الفاعلي ( فاعل النظام الوجودي ) و الدليل الغائي ( غاية النظام الوجودي ) و الدليل الخلق ( خير النظام الوجودي )

. فهذه العناصر الثلاثة المحتاجة إلى تعليل في الموجودات المخلوقة تصبح غنية عنه في الموجود الخالق . و ذلك هو معنى أن ماهيته تقتضي وجوده .

و للنظر الآن في الإلحاد ما مدلوله ؟ أليس هو مجرد جمع لسلوب هذه الأدلة ؟ فهو دليل وجودي سلبي بالمعنى التالي . فصاحبه يقول : تصور الله أو ماهيته يقتضي عدم وجوده و عدم إنيته . و العلة أنه بخلاف صاحب الدليل الوجودي الموجب لا يضمن المناظرة بين الموجودين بل هو يعلن أن تصور الله أو ماهيته متنافية مع ما يتصف به الموجود النسبي من عدم نظام و عدم غاية و عدم خلق ( نفي الأدلة الثلاثة ) ؟ فهل كان العالم عامة و التاريخ خاصة يكون ما هو لو كان الله كما تحدده ماهيته عالما قادرا مريدا و خيرا ؟ لذلك فالإلحاد يستند إلى ضمير هو نقيض الشرطية المتصلة :

\* لو كان الله موجودا لكان العالم كله خيرا .

\* لكن العالم ليس خيرا .

\* إذن الله ليس موجودا ( نقيض التالي ينتج نقيض المقدم ) .

و طبعا فهذا يضمن أن ماهية الله تقتضي أن يكون قادرا على جعل العالم أفضل مما هو . و طبعا فلا أحد يمكن أن يقتنع أن العالم يمتاز بالأبدعية سواء أخذناها بمفهومها عند الغزالي أو بمفهومها عند لايبنتس التي كانت موضع سخرية ديدرو و فولتار . فيكون احتجاج اللاذيني و كأن لسان حاله يقول : الأفضل أن أنفي وجود الله من أن أعترف بأنه عاجز على منع الشر و الظلم و الفوضى في الوجود ! لذلك قلت إن أصل الإلحاد تزيهية سلبية أو دفاع سلبي عن العدل الإلهي بنفي الإله غير العادل استقراء من الوجود بدل من نفي حقائق الوجود التي لا ينكرها

إلا معاند والتي يصعب أن يقبل العقل أن الله راض عنها ! أف يكون الله عاجزا عن منع ما لا يرضى عنه ؟ أم يكون الشيطان هو الأقوى ؟

ألا يستحق الإلحاد إذن أن يوصف بكونه مجرد احتجاج علته تحول وجودي السؤال إلى ثورة ببراءة الأطفال ؟ لذلك فإني اعتبر اللادينيين العرب وكل اللادينيين في التاريخ - إذا كانوا حقاً صادقين في التعبير عن التجربة الوجودية التي حاولت وصفها هنا و لم يكونوا دجالين يحاولون تشويه أسمى تجارب الوعي البشري بمزج السكاري - إما أصوليين يائسين أو أطفال بائسين لم يدركوا أن الدين لم ينف كل هذه الحجج بل هو يعتبرها شرط الدين الحقيقي المحرر للإنسان من هذه الانتفاء بالفعل التاريخي .

و لولا ذلك لما اعتبر الدين الإسلامي الدين الخاتم عملاً تاريخياً أساسه النظري الاجتهاد ( لا العلم المطلق ) و أساسه العملي الجهاد ( لا مجرد التمني ) و كلاهما يحصل بعملية التواصي بين المؤمنين من أجل التصدي إلى هذه الأمور : و تلك هي أمانة المستخلف و مجال حريته لتحقيق الامتحان الوجودي المطلق لبني آدم . فأما التواصي الأول فهو تواص بالحق للوصول الاجتهادي إلى معرفة ما يحرر الوجود من اللانظام و اللاغاية و اللاحير . و أما التواصي الثاني فهو تواص بالصبر لتحقيق ذلك في التاريخ الفعلي . و تلك هي الشهادة على العالمين . ليست القضية الدينية نزعة فكرية : إنها معاناة وجودية لمعرفة الحقيقة و لتحقيقها و ذلك هو معنى الاجتهاد و الجهاد و التحرر من السلطان الروحي و السلطان الزماني التحررين اللذين لا يحصلان بالأمان بل بالتفاني في فهم المعاني و تحقيق المباني . ألم يقل الرسول الكريم : رهبانية الإسلام هي الاجتهاد و الجهاد ؟ أما إذا اخترنا الموقف المزعوم لا دينيا و الذي بينا أنه دين من الأديان فإن النتيجة ستكون كما يلي :

١- لن يبقى معنى للاحتجاج على الشر والظلم وعدم النظام : فتلك سنن الدهر و تلك هي مفاعيل الضرورة و الصدفة .

٢- لن يبقى معنى للسعي لتغيير الأحوال بغير منطق الضرورة و الصدفة : سنعود إلى قيم **كالكلاس** حيث لا قانون إلا قانون القوة و الغلبة .

و من ثم فإن اللادينية ليست لا دينية بل هي عودة إلى الطبعانية التي وصفنا في المثال الذي ضربناه من نظرية التطور . فليكن اللادينيون صرحاء و ليقولوا إنهم مع كل جباورة العالم و سفاحيه و السلام . ألم يفاخر أحدهم وهو في قمة السعادة و السذاجة بأن التزعة من مصر الفرعونية : و ذلك هو وصف فرعون في القرآن الكريم ؟ .

نقلًا عن موقع ( الملتقى الفكري للإبداع ) [www.almultaka.net](http://www.almultaka.net)

مع تحيات : محمد التميمي

[mohammadaltamimi@hotmail.com](mailto:mohammadaltamimi@hotmail.com)